صور من الحياة :

سعادة البك ...

للأستاذ كامل محمود حبيب

ما لهذه الحياة تمزج الجد بالهزل ، وتخلط الحق بالباطل ، وتجمع بين الشدة واللين ، وتوائم بين الصعب والسهل ؟ لعلها تبتغي أن تنفث في الناس الأمل فلا يعتريهم الملل ، وتبعث فيهم المرح فلا يضنيهم الأسى ، وترسل فيهم الرجاء فلا يقتلهم اليأس !

***

سعادة البك رجل نيف على الأربعين ، نال حظاً ضئيلاً من الثقافة العربية والفرنسية ، درج في بيت من بيوت المجد والغنى والجاه ، وكان أبوه الباشا يمتز به ويدلله ويقربه إلى نفسه وقلبه في وقت معاً ، فشب يرفل في الثراء والنعمة ، ويتألق في الصحة والعافية ، ويتقلب في السكينة والهدوء . يأوي إلى المسكن الرحب الأنيق ، ويسمد بالثوب الغالي الجميل ، ويسكن إلى الطعام الشهي اللذيذ . يقضي أيامه بين القاهرة والعزبة ، يأخذ من هناك لينفق هنا عن سعة ، ويستمتع في الريف بالهدوء الوادع والخمول الرخو ، والهواء النقي ، والخضرة النضيرة ، ويستمتع في القاهرة بالصخب المثير ، والحركة المستمرة ، واللهو البريء . وهو إن وجد في العزبة ما يشغل بعض وقته فهو في القاهرة لا يجد إلا صراعاً عنيفاً بينه وبين الزمن : يريد أن يقتل الوقت فيقتله هو ، ويحاول أن يلمس فيه الراحة والطمأنينة ، فلا يحس إلا الضيق والضجر . والأيام تمر وهو يقضي صدر النهار قلقاً مفزعاً لا يجد الصاحب ولا الرفيق ، والناس في شغل عنه . وهو في آخر النهار يتذبذب بين شرفتي الكونتينتال وشبرد ، يضطرب من نضد إلى نضد ، ومن جماعة إلى جماعة ، وصحابه جميعاً من ذوي المكانة والشأن ، ومن أصحاب الرأي والكلمة ، يجلس إليهم في الشرفة ويزورهم في المنزل ، ويرافقهم في الغدو ، ثم هو يهيء لهم المآدب الفخمة ، والسهرات العابثة ، يدعوهم إلى الملهى والمسرح فلا يتعشون . وهم لا يملون صحبته ، ولا يمل هو ، فهو خفيف الظل لطيف المعشر ، طيب القلب ، حلو الحديث ، بارع النكتة ، حاضر البديهة ، لا يثقل على واحد منهم بحاجاته ، لأنه في غنى ، وهو لا يشغل نفسه بحاجات غيره .

عرفته منذ شهور ، وقد ران عليه القلق من أثر الفراغ ، وسيطر عليه الاضطراب من أثر الخمول . ولقد اطمأن إليّ فراح ينثر أمامي نوازع نفسه وخطرات ضميره : فهو يطمع في أن ينال منصباً عالياً من مناصب الدولة ، ولكن أنى له الشجاعة التي تدفعه إلى أن يتحدث بذات نفسه إلى واحد من صحابه ، وهو في نفسه عظيم بين عظماء ، لا يسمو عليه الوزير ، ولا يبذه الباشا ، ولا يعلو عليه المدير . لا ريب فإن طلبه سيضع من قيمته في نظرهم جميعاً ، ولكنه سيجد الخلاص . وشمله مركب العظمة فهو لا يتكلم إلا عن عظمته هو ، وعن مواهبه ومبتريشه ونبوغه .

وفي ذات يوم قال لي : « أرأيت ؟ لقد وُلّي فلان باشا وزيراً للزراعة كذا ، ولولا أنه صديق لنازعته المنصب ، ولو أنني فعلت لظفرت به ولغلبته على أمره » وابتسمت لكلماته الجبارة حين رأيت مركب العظمة يتوثب شامخاً في غير تواضع مترفعاً في غير تحرج ، ثم قلت « وأنت لو شئت لاختارك معالي الباشا ، وهو صديقك ، وكيلا لوزارته » قال لي « حقاً ، حقاً ! لعمري أذهب إليه لأهنئه ولأطلب إليه ما أريد في شجاعة وتثبت »

وغدوت إلى مدير مكتب معالي الوزير ، وإن بيني وبينه صلات العمل وأواصر الصداقة ، فألفيت صاحبنا البك جالساً على كرسي وثير وعليه سيما العظمة والكبرياء ، وبين يديه ورقة وبين أنامله قلم ، فحييته في احترام وجلست إلى جانبه أحدثه « ماذا تفعل يا سيدي البك » قال « لقد أردت أن أقابل معالي الوزير فلم أجده فأنا أكتب إليه خطاباً أهنئه بالمنصب الجديد ، وأطلب إليه ما أريد » قلت « وماذا تريد ؟ » قال « أريد أن أكون عضواً في مجلس الشيوخ في المكان الذي خلا بوفاة فلان باشا » قلت :

وماذا عسى أن يملك الوزير من هذا الأمر ، وهو بين يدى مولانا الملك » قال « لا عجب أن تقول هذا القول وأنت موظف صغير لا تفهم عن المناصب الكبيرة شيئاً . ألا تعلم أن معالى الوزير إن شاء حدّث دولة الرئيس فى شأنى حديثاً طيباً ، فما يعجم دولة الرئيس من أن يزكينى لدى مولانا الملك » قلت « عجباً ! كيف فاتنى هذا الرأى ! »

ثم انطوى البك على قلمه وقرطاسه ، وفرغت أنا إلى مدير المكتب ، فقال لى « أو تعرف شيئاً عن هذا الأفندى ؟ » قلت هايئاً « لا تقل هذا ! إنه رجل من ذوى المكانة والخطر ، وهو صديق روحى لصاحب المعالى الوزير ، لا يوصد فى وجهه باباً ، ولا يرد له شفاعة » قال « ولكنه يجهل التقاليد الحكومية » قلت « وله ؟ » قال « لقد طلب إلىّ أن ألقى الوزير لينبئه ، وليطلب إليه أن يعينه عضواً فى مجلس الشيوخ ، وهذا أمر لا يد للوزير فيه » قلت « الآن ترى ! »

وتأدبت سعادة البك ايشاطرنا الحديث جلاء فقلت له : « وإذا قال لك الوزير إنى لا أملك أمر تعيينك عضواً فى مجلس الشيوخ ، ولا أستطيع أن أحدث دولة الرئيس بذلك ، لأنك لم تكن يوماً سياسياً من ذوى الرأى والبدأ والعقيدة ، ولم تكن عضواً فى حزبه »

قال : « آه ، نعم . لقد فاتنى هذا الرأى ، ولكن إذن أطلب إليه أن أكون مديراً عاماً لإدارة كذا » .

قلت : « وأنت رجل لا عهد لك بما تتطلبه هذه الإدارة من أعباء ، وهى إدارة فنية ، ثم إن هذه وظيفة تحط من قدر رجل عظيم مثلك » .

قال : « فما ذا أفعل ؟ »

قلت : « إذن لا سبيل لك من أمر واحد ، هو أن تكون مديراً لمكتب معالى الوزير » .

قال فى غضب : « أى خساسة وأى ضعة ! لقد جئت أرجو الرجل — وهو لا يعرفنى — فتلقانى فى بشر واحترام ، أفأمسى — بعد ذلك — لأنتزع كرسيه ؟ لا ، لا . لن يكون ذلك أبداً ! »

قلت : « هذا مكانك أنت ، فستلقى هنا عظماء الدولة يرجون رضاك ، ويتملقون كبرياءك ، وينحنون لك ، وستكون أنت — إلى ذلك — صاحب الرأى لدى معالى الوزير ، وكاتم سره ، ورفيق نفسه » .

قال : « لا ، لا . لن يكون ذلك أبداً ! »

قلت : « وماذا عليك والمدير نفسه راض ، لا يجد غضاضة فى أن ينزل لك عن كرسيه ؟ »

قال : « أيرضى هو ؟ فلنسأله — »

وبدا للمدير ما أحاول من عبث ومزاح ، وراقه ما أفعل ، فأراد أن يسرى عن نفسه بعض عنت العمل ، فقال فى مكر : « نعم ، أنا راض على شريطة واحدة » .

فأجابه البك فى لهفة : « وما هى ؟ »

قال المدير : « أن تسعى لدى معالى الباشا لأكون مديراً للادارة التى ذكرت » .

قال : « لا بأس ، فهذا أمر سهل بسيط » .

ثم خلا البك إلى قلمه يديره على القرطاس خربشات وصرات فلا يهتدى . وأعجزه أن يكتب كلمة واحدة فنادانى كى أعينه على أمره وقد حزبه ، قال « تعال ، يا أستاذ ، أرنى كيف تكتب طلباً أقدمه إلى معالى الوزير . فأنت — كما تزعم — أديب كبير »

قلت « وما للأدب وللطلبات الحكومية . إن الأديب يكتب على نسق خاص لا تستسيغه الأوراق الحكومية وهى لا تنضم — عادة — إلا على ألوان من الخلق وأساليب من الخضوع وفنون من الذلة وأنواع من المسكنة ، وأنا لا أحسن شيئاً منها »

قال فى غضب ومن ذا الذى يحسنها غيرك أيها الموظف ؟ » قلت فى ابتسام « مدير المكتب يمليك فهو يختار — دائماً — من الكلام ما يرضى الوزير ويتملقه » قال وهو يلتفت إلى المدير « نعم ، أتسمح يا سيدى المدير فتملى » .

ورأى المدير أن المزاح يوشك أن ينقلب جداً ، فاضطرب فى كرسيه حين تراءى له ما سيكون بعد ، فأعرض عن البك ومال إلى يسر فى أذنى « أرأيت كيف جرنا المزاح إلى المعاوبة ؟ »

قلت « أى معاوبة ؟ » قال « هذا الرجل صديق الوزير ، ما فى

ذلك من شك ، وهو سيصر على أمره وسيحدث به الباشا ، فما ذا ترى سيقول حين يعلم ما كان مني وما كان من هذا الرجل . لا ريب أنه سيثور علي ويقذف بي إلى أقصى الأرض رغم ما تعرفه من ثقته بي وحرصه علي » قلت « لا تخف ! » ثم التفت إلى سعادة البك أحدثه قائلا « أتطلب إلى الوزير أن تكون مديراً لمكتبه ؟ كيف ترضى أن تكون خادماً له تحمل حقائبه وتتبعه كما يتبع الكلب الأمين سيده ، وتضحي أنت بين مشاغله ورغباته ؟ » فثار حينا ثم قال « ومن قال ذلك ؟ » قلت « هذا هو عمل مدير للمكتب » قال « لا ، لست أرضى بأن أكون تبعاً لأحد ، يكفيني أن أمين عضواً في مجلس الشيوخ » قلت « حسناً ، هذا مركز ذو شرف وجاه » .

وأخذ مدير المكتب يملي والرجل يكتب إلى الوزير رجاء أن يعينه عضواً في مجلس الشيوخ ، وتنفس المدير واطمأن وهدأت وساوسه . ورضي سعادة البك . ثم التفت البك إلى مدير المكتب قائلا « مُرْ من يكتب هذا الطلب على الآلة الكاتبة ، وسأحضر غداً لأقدمه بنفسي إلى معالي الوزير » وأجاب المدير بالإيجاب . ولكن الشواغل شغلته عن أن يفعل .

وجاء البك في الميعاد فألقى طلبه على ناحية . وبدا له أن مدير مكتب الوزير قد أهمل شأنه فثار به . وفي حين غفلة منه اندفع صوب باب الوزير يقتحمه ليشكو هذا الموظف المهمل ، فما انتبه المدير إلا ليرى البك أمام الوزير وجهاً لوجه ، والوزير يهش له ويبسم ويلقاه في سرور . وعجب المدير لما يرى ولكن الوزير أمره بأن لا يوصد بابه في وجه سعادة البك لأنه صديق روحه ورفيق قلبه .

لقد دخل البك الثري حجرة الوزير لم يقف ببابه لحظة واحدة ... دخل وخلف من ورائه موكباً لجباً يقف لدى الباب ، تنطوي الأيام وأن الواحد منهم ليتمنى أن يحين حينه قبل أن يلقى معالي الوزير ...

فاضل محمود حبيب

موكب الربيع ...

للأستاذ عبد القادر رشيد الناصري

النغم الشوارد

يا حبيبي ، ظمئت روحي وأضناها الحنين
أنا هيمان وشكي فيك يا حلو يقين
رقد الليل فما تفضح نجوانا العيون
قم نلبِّ دعوة الحب فدنيانا الثرون
زورق الحب على الشط كقلبي المطمئن
قم فهذي ليلة الحب وهيا لنغني

* * *

أقبلت أطياف آذار تحيينا ابتساما
جددت للقلب أفراحاً وللروح هياما
فأتيحوا للربيع السمح عيداً يا ندامى
عمت الفرحة وادينا أسلوها نياما
يا هناك آه لو كنت على الأحزان مني
أتعناك على البعد وهل يجدي التمني ؟

* * *

يا ليالينا بوادي السحر عودي يا ليالي
لم أزل نشوان أستلهم أنفاس الجمال
فالدجى فاني وبدري والأماني حيالي
الهوى يوحي إلى نفسي تهاويل الخيال
أين يا ليل نداماي وأكوابي ودني ؟
أترى يرجعها الليل فأسقى وأغني

* * *

الضحى النشوان يغريني وسحر الصبح يثري
فأغني وأغاني مع الأنسام تسري
الهوى يحويه لحني والشذا يطويه شعري
فأنا زنبقة سح عليها صوب مطر
قل لمن ينكر شدوي أين من سمعك لحني
لو تفهمت أناشيدي لما أنكرت فني

(بغداد) عبد القادر رشيد الناصري